المجلة الدولية للتنمية - المجلد الثانى عشر العدد الثانى (2023) :23 - 38
International Journal of Development, Vol.12, No. (2) (2023): 23-38
ISSN : 2314-5552 ISSN : 2314-5560 (Online)
www. jaid.journals.ekb.eg e-mail : ijd_fas@yahoo.com

تبسه: مدينة ذات الإرث الحضاري بين ضرورة حماية بيئتها والتحكم في تطورها (مقالة مرجعية)

غرزولي لزهر
قسم الهندسة المعمارية بجامعة تبسة / الجزائر.
البريد الإلكتروني: lazhar12@yahoo.fr

المستخلص

هناك العديد من المحطات التي تستوقفنا من تاريخ الجزائر، بدءا من العصور الأولى إلى عصرنا هذا مرورا بالحضارة الرومانية و المدن التي شيدتها الممالك الإسلامية من الأندلس إلى حضارات الصحراء. فالسائح يتخيل أنه قطع مواطنا و مواسم مختلفة فيما أنه في الواقع لم يغير بلدا. إن الجزائر فضاء يختزل العالم بكامله من خلال آثار تكاد تنطق لتتحدث عن تاريخ الحضارات. فالعالمية حاضرة في الجزائر من خلال ذلك التزاوج الثقافي الذي جسده سان أوغيستين و ابن خلدون و سرفانتيس من جهة ، ومن جهة أخرى ممثلا بمختلف الأنماط العمرانية و المعمارية لمختلف المختصين العالميين مثل الكوربوزييه، بويون وأوسكار نمبير. وعلى غرار باقي المدن الجزائرية فإن مدينة تبسه موضوع هذه المداخلة و ما تملكه من مؤهلات طبيعية و مكتسبات ثقافية وإرث حضاري يشهد على تعاقب الحضارات بها، إضافة إلى موقعها الجغرافي المميز بالتمازج بين التل و الصحراء و بوابة للجزائر من الجهة الشرقية. كما تكتسب مدينة تبسه تاريخا عريقا يضرب بجذوره لب العصور الإنسانية و الحضارات الغابرة، بحيث تداولت عليها عدة شعوب و حضارات.

إن تناوب العديد من الحضارات على مدينة تبسه جعلها تحتفظ على بيئة حضرية متنوعة و معالم تاريخية تطرح إشكالية فيما يخص المحافظة على هذا الإرث الحضري وكيفية تسخيره للعصرنة.هذا ما يشغلنا و باقي المختصين، لأن هذه الإشكالية كما تعتبر محلية و وطنية فإنها ذات الأهمية العالمية، حيث تستدعي البحث عن التجانس بين المجتمع و اقتصاده و ثقافته و الفضاءات الخضراء التي يعيش فيها و الذي يعتبر القاعدة الأساسية للتنمية الحقيقية المستدامة للمدينة التي تعتمد على الحماية المطلقة للتراث و المواقع الأثرية الأكثر حساسية و حماية البيئة والسيطرة على التطور الفضائي للمدينة . من خلال هذه الدراسة نطرح إشكالية حالية للمدينة الحضارية عبر مدينة تبسه بفرض اظهار أهمية الإطار المعمارى ومتابعة لتاريخ مدينة تبسه، لأجل المحافظة على البيئة الحضرية الحالية التي تدخل ضمن مفهوم التراث المتجدد دوما.

الكلمات الرئيسية : البيئة - التحكم - التراث - التنمية المستدامة – الحضارة - تبسه .

المقدمة

ان المشاكل المرتبطة بالتطور الحضري في مدينة تبسة معروفة: الاكتظاظ السكاني، البطالة، مشاكل الازدحام، انتشار البناءات الفوضوية و تدهور التراث المبنى الموجود. هذا يضاف إلى ضعف البنية التحتية من حيث سوء الخدمات العامة مثل تسيير المياه الصالحة للشرب، الكهرباء و خدمات النقل الحضري. كل هذه الظروف تؤدي إلى تدهور نوعية البيئة. وفي هذا السياق، تحاول مدينة تبسة مرة أخرى إعادة استثمار مركزها الذي فقد سكانه و خاصة قيمته التاريخية أمام نوعية التوسعات المبرمجة في أدوات التهيئة و التعمير السارية المفعول. لذلك فإن إعادة هيكلة الأماكن العامة (الرئيسية والثانوية) و تطوير التراث العمراني و المعماري و الثقافي من شأنه أن يثير إشكالية استدامة الأنسجة الحضرية القديمة. على الرغم من وجود هذه الإشكاليات التي تتقاطع و تتزاحم على أبواب التنمية الحضرية، فالجماعات المحلية، سكان المناطق الحضرية و الأنشطة الخاصة بهم لا تفتئ أن تولد الاستمرار في التطور و التحضر، المرتبط أساسا بالتطور الاصطناعي للمناطق الحضرية من جهة و المقاومة المادية للبيئة و التراث العمراني من جهة أخرى و ذلك بوتيرة مختلفة يقول البعض و بأي ثمن يتساءل البعض الآخر.

من خلال الدراسة الجالية سيتم استعراض المشاكل الحضرية والبيئية لمدينة تبسة التراثية والتاريخية في آن واحد، يمكننا تسليط الضوء و بالتعاون مع كل المتعاملين على كيفية تحديد العوامل المؤثرة في التطور العمراني و المحددة بآليات التهيئة و التعمير،لا سيما بالنسبة للفترة الممتدة من الاستقلال إلى يومنا هذا،على غرار كل الفترات التي سبقتها. كذلك حدود التدخل على الأنسجة الحضرية بدراسة الأسباب الرئيسية للتطور العمراني لمدينة تبسة بالنسبة للبيئة المتواجدة فيها.

1. مفهوم التراث و أهميته في المضمون الجزائري:أولوية حضرية

إنه من الضروري في البداية توضيح مفهوم التراث وتحديد علاقته مع السياق الجزائري. إذن مفهوم التراث هو من أصل لاتيني وتم تطوره وفقا لسياقات و مضامين ثقافية مختلفة و بشكل تدريجي ثم اعتماده من طرف معظم البلدان الفرانكفونية . في الجزائر كما في تونس و السنغال فإن مسألة التراث أصبحت تمثل أهمية بالغة من حيث حمايته وكذا السياسات المختلفة المعتمدة لهذا الغرض.

عندما نتكلم عن التراث بالنسبة للمدينة التي تواجه مشاكل في مناطقها الحضرية. :«...يمكننا اعتماد موقفين: الأول يتمثل في كل الممتلكات العقارية أو المنقولة،و الممارسات أو المراجع التي يتم وصفها بالتراثية.الثاني يتمثل في كل المناطق الحضرية الموروثة من الماضي، ولكن النهج المتبع في هذه المسألة اليوم في المدن يؤدي إلى تولي هذين البعدين في وقت واحد،ولكن يجب علينا أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار خصائص كل الأماكن»[1]

بعد استقلال الجزائر تم التأكيد على الهوية الوطنية من خلال الرفض القاطع لرموز الاستعمار الفرنسي وتنمية الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، فالمرسوم رقم 281/67 لسنة 1967 المتعلق بحماية المواقع التاريخية و المعالم الأثرية و الطبيعية جاء لتحقيق ذلك. وفي هذا الشأن وابتداءا من سبعينيات القرن الماضي ، اشتدت حدة المشاكل الاجتماعية في المناطق الحضرية و تنمية الفكر البيئي في العالم، أثارت سياسة التخطيط الحضري و العودة إلى مسالة التراث و مختلف السياسات المتعلقة به ثم التحرك لحماية المواقع و الآثار التاريخية و كذا المناظر الطبيعية.

منذ بداية التسعينيات، هناك اتجاهات جديدة في المؤسسات الدولية التي تتعامل مع مسألة التراث، و منها منظمة اليونسكو(UNESCO) و التابعة لمنظمة الأمم المتحدة التي حددت معنى التراث على نطاق واسع. و تنامي ظاهرة العولمة تطلب إعادة النظر في بناء علامات الهوية الجديدة التي تتماشى و المعاصرة. وبالإضافة إلى اليونسكو، فإن المواثيق المختلفة و التوصيات الصادرة من طرف المنظمات الدولية التي منها المجلس الدولي للمعالم و المواقع الأثرية (ICOMOS) و في جلسته العامة السابعة في ألمانيا عام 1984، مهد الطريق لإدماج الإرث الاستعماري في التراث الحضري للبلدان المستعمرة و منها الجزائر.إضافة إلى ذلك المجلس الأوروبي ومنظمة دول البحر الأبيض المتوسط اللذين لعبا دورا كبيرا في تعريف المنظومة الدولية للتراث من حيث النظري و تطبيق الإجراءات القانونية في ميدان الحفاظ على التراث[2].

إن التنمية المستدامة أصبحت الطريقة المثلى من أجل إعادة الاعتبار و كذا المحافظة على التراث المتمثل في الإرث الثقافي، العمراني، المعماري و المواقع الطبيعية. لذلك ينبغي العمل من أجل حماية البيئة و التراث ، في هذا السياق و منذ عشرات السنوات، فإن الجزائر اتخذت سلسلة من الإجراءات القانونية و العملية لحماية التراث الطبيعي و الثقافي، نذكر على سبيل المثال: ترميم و إعادة تأهيل بعض المعالم الأثرية مثل الحصن رقم 23 في الجزائر العاصمة و قصر الباي في مدينة قسنطينة و غيرها من المشاريع الأخرى. كما شهدت هذه الفترة سن لوائح عدة لإدارة البيئة و التراث بصفة عامة حيث تطور مفهوم التراث تطورا كبيرا و لاسيما منذ تطبيق القانون رقم 98 /04 المتعلق بحماية التراث ابتداءا من سنة 1998.

مواجهة للعولمة وآثارها على إعادة هيكلة السلطات والأقاليم، فالمجتمع الجزائري شأنه شأن المجتمعات المتواجدة في شمال إفريقيا التي هي في صراع دائم مع الهوية. و من ثم فإن الاهتمام بالتراث و تجديده يعبر عن إعادة اكتشاف الهوية الجزائرية و انبعاثها من جديد. حاليا فإن شهر التراث فى الجزائر يمتد بين 18 ابريل و 18 مايو من كل عام وقد أصبح نوعا من التقاليد الوطنية و كذلك مناسبة لتنظيم مجموعة من النشاطات العلمية و الثقافية[2]. إن تعزيز الترسانة القانونية في هذا المجال يعبر تعبيرا واضحا عن الإدارة السياسية لحماية و حفظ التراث. بالإضافة إلى البرامج المكثفة في هذا المجال، نذكر منها تصنيف مدينة غرداية الجنوبية ضمن المواقع المحمية تراثيا، و لكن لا يزال هناك الكثير الذي ينبغي القيام به في هذا المجال الهام جدا. و تحقيقا لهذه الغاية المثلى يجب علينا و استنادا على الخبرات و التجارب الدولية في هذا المجال تحسين و عقلنة تسيير التراث الثقافي و الطبيعي للمدن الجزائرية الذي يعتبر من العوامل الرئيسية لتحقيق التنمية المستدامة لأقاليمها و عاملا أساسيا في تهيئة الأقاليم و التخطيط على المستوى الوطني، الجهوي و المحلي.

2. الإشكالية الحضرية لمدينة تبسة في سياقها البيئي: تركات تاريخية و تحولات بيئية

إن هذه المسالة تغطي مساحة فضول كبيرة جدا حيث أن الإشكالية المطروحة تتطلب الأخذ بعين الاعتبار الجوانب المتعددة للمدينة الداخلية منها و الخارجية، المورفولوجية و الديناميكية. إن مفهوم المدينة في سياق بيئتها الحضارية التي تعتمد أساسا على مدى التناسق المطلوب بين كل المتعاملين ومدى تدخلهم في آن واحد كل في حدود اختصاصه. لذلك فإن البيئة الحضرية و تطورها ليست محددة حصرا بالرجوع إلى المدينة و لكن أيضا بالبيئة المعقدة و المتنوعة بتحولاتها المتمثلة في التصحر، الزحف على الأراضي الزراعية و التلوث البيئي التي تعتبر بمثابة مرصد حقيقي للتغير الطبيعي و المجتمعي[3].

فالمدن الجزائرية بما فيها تبسة موضوع المداخلة عرفت تطورا كبيرا تجاوز حتى الآن قدرة الجماعات المحلية من حيث الاستيعاب و التمويل، و كذا التسيير الحضري اليومي. في هذا الشأن نستطيع القول بأن آثار هذا التطور على البيئة الحضرية لمدينة تبسة متفاوتة. هناك:المركز القديم الذي يعاني من التدهور الدائم و المستمر و التي كانت لنا الفرصة لعرض كيفية التكفل به في إطار عملية التجديد الحضري الشامل[3]. التباين بين الأحياء الموروثة من الاستعمار الفرنسي وغيرها من أنواع الأنسجة الجديدة، إضافة إلى ذلك فإن سياسة الإسكان كان لها تأثير حاسم من حيث الحلول التوفيقية في بعض الأحيان، و غير المناسبة في البعض الآخر. أما بالنسبة للتسيير الخاص بالبيئة فنلاحظ التسيب،عدم الكفاءة ونقص الوعي من المخاطر الرئيسية التي تتصل مباشرة بالبيئة.

الى جانب ذلك فإن التمركز في مجالات محدودة للسكان وكذلك النشاطات خلق عدم توازن بين المناطق الحضرية المكونة للمدينة، مما أثر سلبا على المواطنين بشأن صحتهم و الكوارث المحتملة التي قد تتسبب من عدم وجود عمليات للتجديد الحضري التي تمثل الحلقة الرئيسية و القوية لكل سياسة خاصة بالحفاظ على التراث و البنية الحضارية. هذه الوضعية تساعد على تفسير الأسباب التي من شأنها أن تجعل من أدوات التهيئة و التعمير والتخطيط المجالي الخاصة بإنتاج المدينة و التدخل عليها مستوردة وغير ملائمة للإطار الثقافي، الاجتماعي، الاقتصادي والبيئي للمدينة. هذه الأدوات تهتم أساسا بالتوسعات الخاصة بالمدينة من أجل إيجاد حلول آنية للنمو الديمغرافي من حيث توفير السكن والمرافق التابعة له. كل هذا في غياب لإستراتيجية كاملة للتصور المستقبلي للتنمية المستدامة للمدينة.

إن أدوات التخطيط المحلي والتسيير الحضري لها هدف مزدوج، من جهة فإنها تحدد المبادئ الرئيسية للعمل وتوجيه السياسة العامة للتهيئة و التعمير للمدينة. و من جهة أخرى ساهمت و تساهم في مختلف الانحرافات العمرانية. كما يمكن لها أن تساهم في تجسيد مبادئ و أهداف التنمية المستدامة، و لاسيما من حيث وقف التوسع العمراني المفرط لأنها تعتبر أدوات قانونية قبل أن تكون عمرانية[4]. إذن المشاكل الاجتماعية، الاقتصادية و البيئية ناتجة بالأساس عن السياسات الحضرية التي نفذت حتى الآن. ولذلك فان التحليل و التحقيق الذي سوف نقوم به في هذا الإطار و الخاص بتطور مدينة تبسة عبر مختلف الفترات التاريخية حتى يومنا هذا يسمح لنا بفهم و توضيح هذه الظاهرة، بالإضافة إلى معرفة العناصر الفعالة في المدينة و إطارها البيئي من خلال تطوير وتسيير وسائل الإنتاج و التدخل على مدينة تبسة. هذه المنهجية المقترحة لها علاقة مباشرة مع الإشكالية المطروحة ولا تبتعد عن التساؤلات المطروحة منذ أربعة عقود فيما يخص الخبرة في مجال الحفاظ على التراث في الجزائر.

3. تطور مدينة تبسة : ممارسات في المجال الحضري

إن صورة المدينة تعبر عن المجال الحيوي للإشكاليات الحضرية الموجودة ، وبالتالي فإن نوعيتها الحضرية تتعلق بالإجراءات و البرمجة ومن التراكيب العمرانية والمعمارية المنتجة في آن واحد. فإدخال مفهوم الاستدامة في المناطق الحضرية، تطلب استعمال طرق ومناهج جديدة لتكوين و تشكيل المدينة المستقبلية و ذلك بالمحافظة على التراث التاريخي الحضري و المعماري من جهة و من جهة أخرى، التكفل بالاحتياجات المستقبلية للسكان، و هذا مع الأخذ بعين الاعتبار الجانب الاقتصادي الذي يعتبر كقوة فعالة للتنمية من دون آثار سلبية على البيئة. و في هذا السياق نستطيع القول بأن تعزيز البيئة الحضرية هو شأن نوعي، كمي و تطوري، لذا ينبغي في المقام الأول وضع إستراتيجيات لإدارة متوازنة للفضاء أو المجال العمراني للمدينة. لذلك فإن الغرض من تحليل النمو و التطور العمراني والحضري لمدينة تبسة يقودنا أولا إلى التساؤل عن تطور المدينة في إطار السياسات الحضرية المختلفة عبر التاريخ، وأدواتها المستعملة حتى الآن. ثانيا النظر في نوعية الصورة العامة للمدينة عبر نوعية المساحات الحضرية و الإطار المبني المتكون في ظل هذه السياسات، و مدى نوعية استعماله و آثاره على الحياة الثقافية و الاجتماعية للمواطنين. وهذا النوع من التحليل يساعدنا أيضا في تحديد عملية التحضر و خصائصه الثابتة و المتغيرة و كذا تعيين المتعاملين و المتدخلين الذين شاركو في هذه العملية. و الثروات التي يجب ترشيدها في إطار إجراءات الاستدامة الحضرية (العلاقة بين الممارسات الاجتماعية و العوامل التاريخية و البيئية). إذن فهو يسهم في تجديد الطرق المستعملة حاليا في إدارة المشاريع الحضرية بإشارة إلى تطور المذاهب القائمة على مفهوم التنمية الحضرية المستدامة للمدينة.

في جميع الحالات فإن الطريقة الأمثل للتوصل إلى فهم أفضل لمختلف أوجه المدينة في إطار بيئتها تمر عبر تشخيص الوضعية الحالية و عيوبها و مدى التطابق بين الفئات الاجتماعية و بيئتها بمعنى أوسع. هذه العملية غالبا ما تستدعي استعراض التطور التاريخي لاستنتاج ما تم تحقيقه بالفعل عبر التاريخ و دور مختلف الجهات الفاعلة المعنية و منطقهم و هذا ما سوف نحاول القيام به خلال هذه المداخلة. بالإضافة إلى الطريقة التي سبق ذكرها نستخدم طريقة الاستجواب و المساءلة لشريحة المتعاملين و المتدخلين في المدينة (السياسيين المحليين، ممثلي القطاعات الحكومية، مختلف الهيئات الخاصة بحماية التراث). يسأل كل واحد من هؤلاء في القضايا المطروحة في هذه الإشكالية الحضرية و الهدف من ذلك هو اختيار بعض النقاط و التعرف عن قرب على كل دور لمختلف الجهات الفاعلة و تقاطعها فيما يتعلق بهذه الإشكالية التراثية.

4. تبسة: مدينة تراثية باستحقاق

تعتبر مدينة تبسة مفترق طرق الحضارات و بامتياز مجال يعبر عن تأثير المزيج الثقافي[5]. كل حضارة مرت بها ساهمت في ترسيخ تقاليدها، إيديولوجيتها و طرق الحياة فيها.إن تيفاست (Thevest) العتيقة الموجودة منذ 21 قرن، في كل فترة من تاريخها، حافظت المدينة على الطابع التراثي: التاريخي و الأثري الغني المسجل في حجارتها و في الدور الذي جعل منها واحدة من بين العديد من المدن التراثية التي تزخر بالعديد من المعالم ذات القيمة الأثرية العالمية. إضافة إلى موقعها الجغرافي المميز بالتمازج بين التل و الصحراء و امتداد حدودي مع تونس و عراقة صناعتها الحرفية و تقاليدها الشعبية و تراثها المتنوع. نتيجة لعوامل اجتماعية، اقتصادية و إستراتيجية، إكتسبت مدينة تبسة تاريخا عريقا يضرب بجذوره لب العصور الإنسانية و الحضارات الغابرة، بحيث تداولت عليها عدة شعوب و حضارات من فترة ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا .

4-1. ما قبل التاريخ:

يعود تاريخ الإنسان في تبسة إلى العصر الحجري القديم أي الباليوليتي[6]. من أهم مناطق تمركز الإنسان البدائي في مدينة تبسة نجد: كهوف جبال قسطل، الماء الأبيض و تازبنت، فج غليلاي، خنقة الموحد و رسوم الكهوف الحمراء بجبل الدكان. في عصور ما قبل التاريخ تطورت حياة الإنسان في تبسة من بدائية الى ان أصبحت في العصر الحجري الحديث تتكيف مع الطبيعة و يلامس موادها و يستغلها في خدمة حاجياته، بحيث شكلوا أكواخا تحولت إلى قرى. كما احترفوا الزراعة و الرعي و عرفوا الفنون و هذا ما تدل عليه القطع الفخارية التي تحمل رسومات و أشكال متنوعة و أدوات مصنوعة من العاج المبينة في شكل (1).

شكل (1). صورة أدوات من العاج.

4-2. العهد الفينيقي:

عندما استقر الفينيقيون بتبسة، أصبحت هذه المدينة مركزا نشطا في التجارة بينها و بين قرطاج. في هذه الفترة ازدهرت تبسة بكل جوانبها، كما تعلم سكانها عن الفينيقيين الفنون و الزخارف كما هو مبين فى شكل (2) والتخطيط العمراني، شهد النسيج العمراني انسجاما و تألقا، بحيث تميزت باتساع الطرق التي كانت تربطها بمختلف النواحي المجاورة، عرفت تبسة في هذه الفترة باسم هيكاتومبيل أي المدينة ذات المائة باب.

شكل (2). صورة مخلفات فينيقية.

4-3. العهد الروماني:

بعد سنة 39 ق.م، امتاز الوضع في كل بلاد البربر بما فيها تبسة بالتنافس و الصراع إلى السلطة، حيث وصل عدد سكان المدينة في عهد هدريان الى 50000 ساكن. التركيبة العمرانية للمدينة تعتمد على محورين أساسيين متعامدين وهما : Cardo و Décumanus كما هو مبين في الشكل (3). وبين سنتي 193 م إلى 211م اعتلى العرش سبتيم سيفار و ابنة كراكلا من الأمازيغ و في هذه الفترة عرفت تبسة أوج رقيها و ازدهارها في كل الجوانب خاصة الفنون و المعمار حيث بني

المسرح المدرج، الصور القديم و الجسور السبعة على وادي زعرور، قوس النصركراكلا (شكل 4) أنظر الصورة رقم 03) ، معبد مينارف (شكل 5) ،الكنيسة الرومانية (شكل 6)، الحمامات المفروشة بالفسيفساء، معصرة الزيتون بريزقال، مدينة تبسة العتيقة، و المسرح و الفوروم.

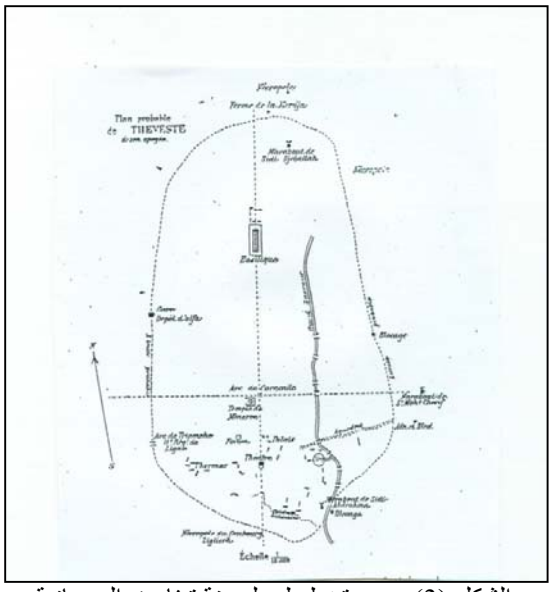

الشكل (3): رسم تخطيطي لمدينة تيفاست الرومانية.

شكل (4). صورة قوس النصر كركالا.

شكل (5). صورة معبد مينارف.

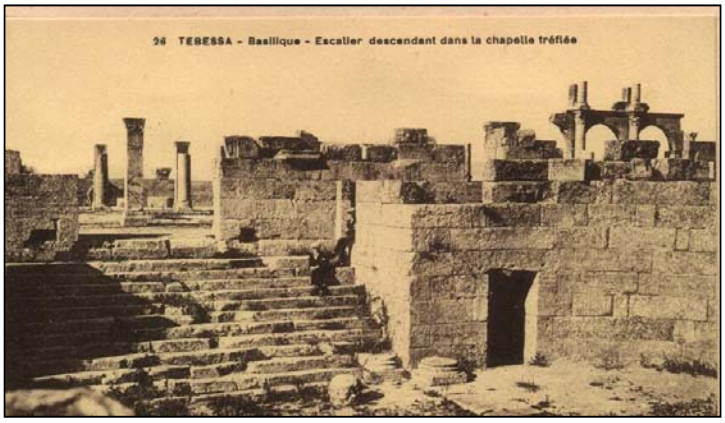

شكل (6). صورة الكنيسة الرومانية.

4-4. العهد الوندالي:

ثغور الاحتلال الروماني مهد لاحتلال الوندال لمدن شمال إفريقيا و تبسة أيضا خاصة بعد الخلافات التي نشبت بين بونيفاس و بلاسيديا الذي استنجد بجنسيريق ملك الوندال، و قاد حملة عسكرية ضد مناطق النفوذ الروماني و وصل تبسة سنة 439 م. قام الجيش الوندالي بقيادة جنسيريق بهدم مدينة تبسة و كل ما شيده الرومان من جسور، معابد و منشآت معمارية أخرى... و أصبحت مدينة تبسة عبارة عن أطلال، و شهدت الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في هذه الفترة تدهورا بحيث ركدت التجارة بسبب مهاجمة الوندال للقوافل و أهملت المشاريع العمرانية و الزراعية.

5-4 الفترة البيزنطية:

دخلت تبسة عهدا جديدا من مسيرتها التاريخية، حيث قام صولومون ببناء الأسوار حول تبسة على شكل قلعة والتي تشكل نواة المدينة المعاصرة[7] (شكل 7- 10) للاحتماء هو و جيشه، فجلب المهندسين من تالة و قرطاج و كذلك شيد أسوار حول البازيليك و تبسة القديمة و 50 برجا للمراقبة. نشبت معركة دامية بين صولومون و الأمير أنطلاس قائد قبائل الفراشيش و اللواتة و النمامشة، فانهزم صولومون و قتل سنة 546م، عاشت بعدها مدينة تبسة مرحلة متدهورة وغامضة إلى غاية الفتح الإسلامي في القرن السابع ميلادي .

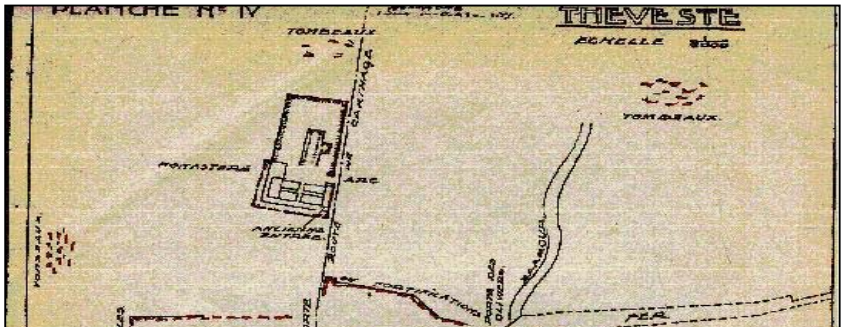

الشكل (7). القلعة البيزنطية . المصدر[5].

شكل (8). صورة السور البيزنطي.

شكل (9). صورة باب صولومون من الجهة الشرقية.

شكل (10). صورة باب شالة من الجهة الجنوبية.

6-4 الفتوحات الإسلامية:

عندما فتح عقبة بن نافع قرطاج في القرن الأول هجري و القيروان، واصل زحفه نحو المناطق الغربية و فتح تبسة بعدما دارت معركة قوية بين الجيش الفاتح و جيش أمير تبسة عند أسوار المدينة. في فترة الفتوحات الإسلامية بولاية تبسة لابد من التطرق إلى الحملتين التي قادتها جيوش الفتح الإسلامي و هما:

- الحملة الأولى: و تمتد من 33هـ إلى 34هـ أين اشتبكت جيوش الكاهنة بجيش حسان بن النعمان، انتصرت في هذه الحملة الكاهنة و أسرت بعضا من جيش حسان من بينهم خالد العبسي الذي علم ابنيها العربية و الإسلام، و ظلت حاكمة على الأوراس البربرية مدة خمس سنوات بدون منازع.

- الحملة الثانية: فهي تمتد من 69 هـ إلى 88 هـ ، حيث عزز حسان بن النعمان جيشه لمواصلة فتح بلاد البربر في هذه الحملة انتصر حسان على الكاهنة و قتلها في بئر العاتر الذي يعرف إلى يومنا هذا ببئر الكاهنة. بعد هذه الفترة اعتنق الأمازيغ الإسلام و تعلموا العربية . بعد فتح تبسة توالت عليها العديد من الدويلات و الإمارات الإسلامية، فقد كانت تابعة للأغالبة بولاية القيروان من 184 هـ إلى 296هـ. و في عهد الخليفة بن تميم المعز لدين الله أصبحت ضمن نفوذ الدولة الفاطمية من 311هـ إلى 365هـ. كما احتلها الهلاليون في 442هـ. عندما بسط الموحدون سلطتهم على كامل بلاد المغرب كانت تبسة ضمن إقليمهم من 555هـ إلى 627هـ. خاصة لإستراتيجية موقعها و قربها من القيروان، كما تداولت على تبسة الدولة الحفصية و الدولة الزيانية.

7-4 الفترة العثمانية:

حلت الإدارة العثمانية بتبسة سنة 1575م ، و بسط الأتراك سلطتهم السياسية و العسكرية عليها و وضعوا على المدينة حراسة دائمة. لم يلق الحكم العثماني الصدر الرحب بتبسة بالنظر إلى تلك الخروق و الثغرات في تعاملهم مع السكان بحيث فرضوا عليهم ضرائب ثقيلة و غيرها من التجاوزات، و هذا ما أدى إلى اشتعال العديد من الثورات تحت زعامة قادة

قبائل النمامشة و الحراكتة و انتصر عليهم باي قسنطينة بقيادة الوزناجي و هذا ما جعل أهل المنطقة يهاجرون نحو الصحراء. ومن بين الهياكل المنشأة المسجد العتيق المبين في شكل (11) وظلت تبسة تحت الحكم العثماني إلى غاية الاحتلال الفرنسي.

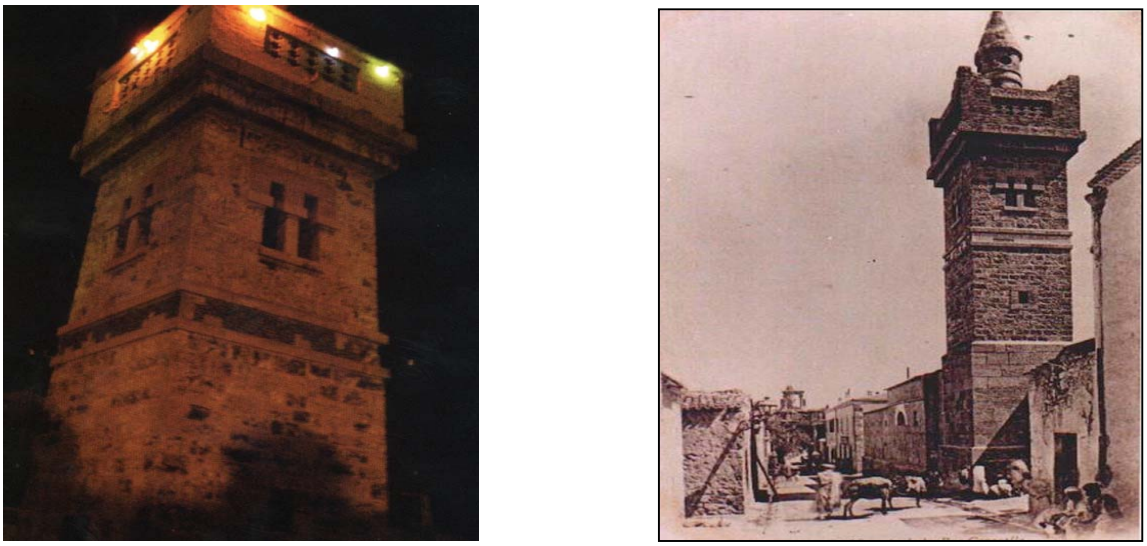

شكل (11). صورة المسجد العتيق 1842.

8-4 الاحتلال الفرنسي:

كانت أول محاولة للجيش الفرنسي للاستيلاء على تبسة سنة 1842 م ، الذي لم يتمكن من احتلالها بفعل المقاومات الشعبية العنيفة التي قادها سكان المنطقة مما أدى إلى تراجعه ، فأعاد المحاولة سنة 1846م حيث قام بتهديم جانب من سور المدينة بقذائف المدفعية و شيد ثكنة عسكرية سنة 1856م جنوب السور(شكل 12). وخلال هذه الفترة عرفت المدينة توسعا كبيرا خارج السور البيزنطي الذي يمثل مركز المدينة (شكل 13) ، حيث عرف النسيج العمراني داخل السور البيزنطي إعادة هيكلة حسب متطلبات الفترة ولا سيما للسماح للشاحنات العسكرية بالدخول و الخروج دون عوائق (شكل 14 ، 15). عندما انطلق النضال السياسي و الحركة الوطنية الجزائرية، انتشرت في مدينة تبسة الكتاتيب القرآنية و المدارس (شكل 16) التي عملت على محاربة الأفكار الاستعمارية التي حاولت محو الشخصية العربية الإسلامية و برز فيها شيوخ و علماء غيورين على الهوية الوطنية أمثال العربي التبسي.

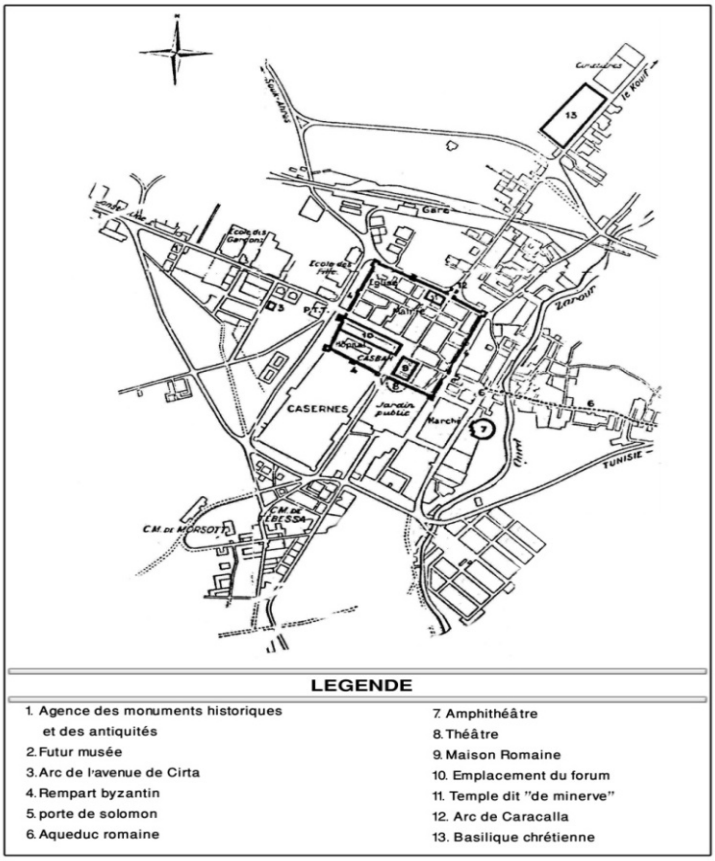

الشكل (12). مدينة تبسة في عهد الاستعمار الفرنسي.

شكل (13). صورة مركز المدينة الاستعمارية.

شكل (14). صورة الثكنة العسكرية (القصبة).

شكل (15). صورة باب قسنطينة من الجهة الغربية

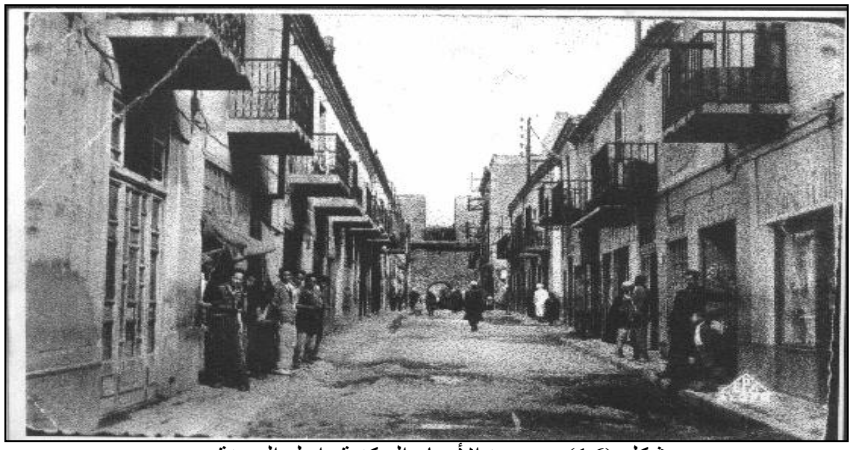

شكل (16). صورة الأحياء السكنية داخل المدينة.

4-9 بعد الاستقلال:

نلاحظ في هذه الفترة مرحلتين أساسيتين، خلال المحلة الأولى التي تمتد من 1962م إلى 1990م، عرفت مدينة تبسة تطورا سريعا في مجال التعمير، و ذلك بسبب ترقيتها إلى مصاف مقر الولاية سنة 1974. حيث أعقب ذلك إنجاز برامج سكنية داخل ما يسمى بالمناطق الحضرية الجديدة ZHUN، و بناء هياكل جديدة مثل مقر الولاية الإداري و المطار و غيرها من المرافق الأخرى، هذا ما ولد جاذبية للسكان،التي كانت وراء ظهور بعض الأحياء الفوضوية مثل :الزيتون- الزاوية – الجرف- المرجة (شكل 17). هذه الأحياء نشأت بشكل تلقائي عفوي دون تخطيط و دون المرافق الضرورية مما أثر سلبا على المناطق الريفية التي هجرها أصحابها بحثا عن ظروف جديدة للحياة.

خلال هذه الفترة التوسعات العمرانية للمدينة كانت في عدة اتجاهات:

- إلى الشمال: المطار و المنطقة الصناعية و منطقة النشاطات و التخزين.
- إلى الجنوب: إنشاء السكنات و المرافق التابعة لها.
- إلى الغرب: إنشاء البرامج السكنية و المرافق الهيكلية.

شكل (17). صورتين لبعض الأحياء الفوضوية عبر المدينة.

بينما في المرحلة الثانية التي تمتد من سنة 1990 إلى يومنا هذا فقد تميزت باستمرار التطور الحضري و على خلاف المرحلة الأولى فإن التوسع كان نحو الجهتين الشمالية و الغربية و بطريقة منظمة و مخططة و ذلك بإنشاء المخطط التوجيهي للتعمير (PUD) ثم المخطط التوجيهي للتهيئة و التعمير(PDAU)[8]. في الحقيقة فإن خلال هذه الفترة ظهرت المناطق الحضرية الجديدة و بعض المرافق الحضرية و كذا السكنات العشوائية في أطراف المدينة.

هذه المرحلة شهدت بداية التعمير الخطي على طول الطريق الوطني رقم 10 و ذلك مع إنشاء المنطقة الحضرية رقم 4 و المركز الجامعي اللذان يبعدان على مركز المدينة بحوالي 5 كم، كما عرفت مدينة تبسة نموا ديموغرافيا لم تعرف مثله من قبل حيث انتقل من 66500 نسمة في التعداد السكاني سنة 1977 إلى 111000 نسمة في التعداد السكاني لسنة 1987 و بلغ 161440 نسمة في التعداد السكاني 1998 و أصبح 204000 نسمة حسب التعداد السكاني الأخير لسنة 2008. وهذا التطور السريع للمدينة في مختلف الاتجاهات لم يسمح بالتحكم في التسيير الحضري حيث أسفرت من خلاله عدة عواقب سلبية أهمها الإختلالات و عدم التوازن المجالي للمناطق الحضرية المكونة للمدينة المعاصرة و كذا كل المناطق المنتمية لها.

ومما سبق نستطيع القول أن مدينة تبسة هي القطب الوحيد المهيمن على المجال الولائي حيث تتميز بمايلي:

- قطب خدماتي بامتياز لاسيما المتصلة بالتجارة و الخدمات (ما يقرب 120 وظيفة في قطاع الخدمات لكل 1000 نسمة).
- مستوى معتبر للتنمية في القطاع الثانوي لاسيما في قطاع البناء و الأشغال العمومية (126313/24836 منصب عمل ، ما يمثل 20 % من الطبقة الشغيلة).
- وضعية متميزة و دور هام جدا في الحركة العمرانية و ذلك لوجود المطار الدولي و تلاقي و تقارب معظم الطرق الوطنية المهيكلة للجهة الشرقية للبلاد (نذكر منها الطرق الوطنية رقم 10، 16، 82 و 83).

هذا التطور الكبير الذي عرفته مدينة تبسة و خاصة نسيجها الحضري في شكل خطي من الجهة الغربية (شكل 18-20) يطرح الآن مشاكل خطيرة في مجال التسيير الحضري الذي تزداد وتيرته مع مرور الزمن رغم القيود الطبيعية و الزراعية التي تحد من إمكانية التوسع الدائم في هذا الاتجاه المذكور أعلاه هذا ما جعل مدينة تبسة تتميز بالصفات التالية:

- أغلبية الإطار المبني متكون من السكنات الفردية بصفة عامة و الفوضوية بصفة خاصة مما نتج عنه الكثير من المشاكل منها المتعلقة بالحركة و التجهيزات الضرورية لمثل هذه التجمعات.
- الظروف المتردية للسكان و البيئة المبنية الناتجة عن و جود الأحياء المذكورة أعلاه التي تفتقر لعدم وجود المرافق الضرورية، أو عدم كفاية القنوات و قدمها.
- سوء حالة شبكة الطرقات لهذه الأحياء و لا سيما منها الجرف، الزاوية ، المرجة و الزيتون.
- التراث الثقافي و التاريخي المتدهور المتمثل في مركز المدينة العتيقة.

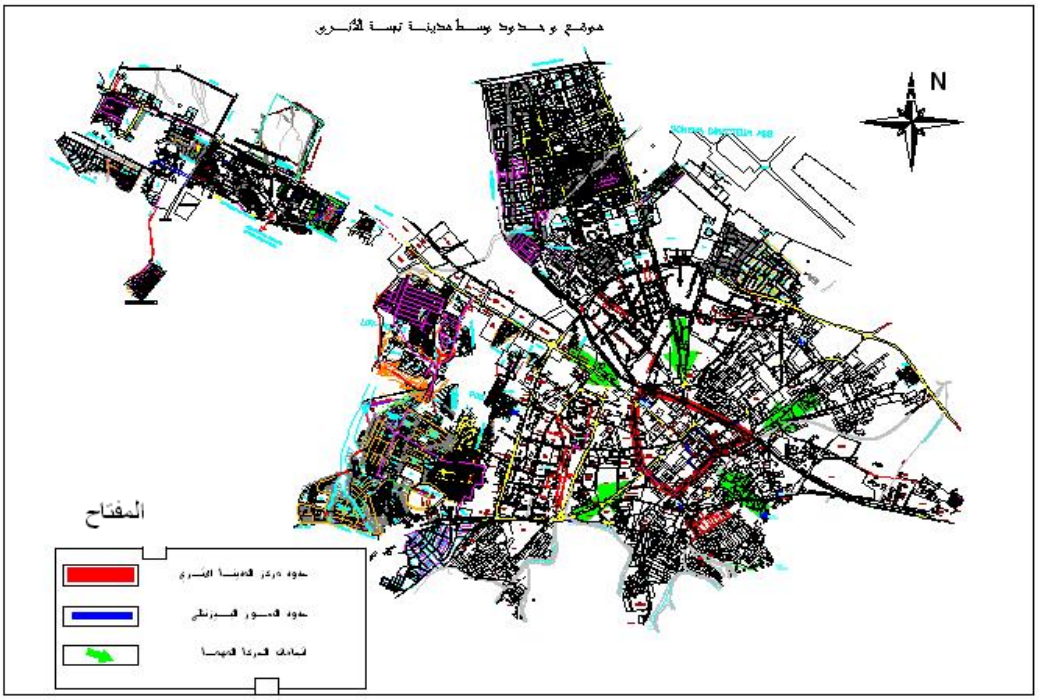

الشكل (18). الوضعية الحالية لمدينة تبسة. المصدر [7].

شكل (19). صورة النسيج العمراني لمدينة تبسة.

شكل (20). صورة المدينة حول مركزها التاريخي.

5. الاستنتاجات و التوصيات:

من تحليل النتائج الخاصة بتطور مدينة تبسة عبر العصور ولا سيما الفترة الممتدة من الاستقلال إلى يومنا هذا ، نستطيع القول بأن تأثير كل هذه العوامل، يجعل من مدينة تبسة تكتسب مؤشرات التطور السريع و المتواصل مقارنة مع المدن الأخرى التابعة للولاية أو المدن الأخرى المتواجدة في شعاع التأثير الإقليمي و المجالي للجهة الشرقية للبلاد.

إن التطور الخطي الذي سبق ذكره يؤدي لا محالة في المستقبل إلى المد العمراني و التحاق التوسع العمراني إلى المدن القريبة منها و المتمثلة في بكارية من الجهة الشرقية و بولحاف الدير من الجهة الشمالية و الحمامات من الجهة الغربية. يفسر هذا بسهولة الأوعية العقارية على الطريق الوطني رقم 10 التي تتميز بتضاريس مستوية و أراضي قابلة للبناء بدون تكاليف باهظة و قربها من الشبكات الرئيسية للمدينة.

حاليا تظل مدينة تبسة واحدة من المدن الرئيسية في البلاد التي يعاني مركزها القديم من مختلف أوجه القصور من تدهور الإطار المبني و البيئي و مشاكل الحركة الميكانيكية أو المشاة، و خاصة صعوبة التوقف إلى غير ذلك من المشاكل العمرانية الأخرى التي ذكرناها خلال هذه المداخلة المتواضعة.

إن هذه العوامل المذكورة التي تكتسي أهمية بالغة إن لم يتم القضاء عليها في إطار دراسة التجديد الحضري لمركز المدينة العتيق في إطار منهجية شاملة للتحكم في التطور العمراني لمدينة تبسة في مضمونها و سياقها البيئي و الإستراتيجي و هذا ما أشرنا له في عنوان المداخلة المقترحة في مؤتمركم الهام جدا فستكون النتائج لا محالة وخيمة و عندئذ لا تستطيع تدارك ما يمكن فعله في الوقت الحالي.

التنمية المستدامة لمدينة تبسة تمر حتما بالتكفل بالإطار المبني المتواجد الذي يعتبر إرثا حضريا من جهة ومن جهة أخرى بالتحكم في تطويرها و توسعاتها المستقبلية وذلك في إطار رؤية شاملة تأخذ بعين الاعتبار المعطيات الإقليمية المحلية و الجهوية التي تنتمي إليها المدينة

الخاتمة:

تبسة التي كانت تحمل اسم Thevest هي الآن موقع حضري تراثي غنية بآثارها و معالمها التي يعود تاريخها كما سبق ذكره في ما قبل التاريخ إلى الآن مرورا بالحقب التاريخية التي سجلت تاريخ الإنسانية. فالمواقع و المعالم الأثرية الموجودة تعتبر صروحا حضرية تعبر عن قيمة الهندسة المعمارية والتخطيط الحضري لمجتمعاتنا لأنها تعكس طريقتنا في العيش معا و تعكس الأناقة المتميزة لإطارنا المبني ، و في نفس الوقت تاريخ الأمم و الشعوب التي تلقيناها أو التي فرضت علينا. إضافة إلى ذلك فإن التحولات البيئية نتجت عنها عوامل سلبية منها ما هو مؤثر على الموارد الطبيعية من تلوث و استهلاك غير عقلاني، ومنها ما هو عمراني حيث أن التوسعات الحالية للمدينة لم تأخذ بعين الاعتبار بعض من هذه المعطيات البيئية مثل ظاهرة التصحر و المحافظة على الأوعية العقارية المستقبلية.

إن الحماية و الحفاظ على التراث الموجود و تنميته هو عامل جذب لمدينة تبسة و مركزها القديم، لأن قضية التراث هو بناء للهوية الحضرية و إعادة إدماجها في السياق الشامل للمنافسة المحلية و الوطنية و حتى العالمية. زيادة على ذلك فإن تطوير السياحة بصفة عامة والسياحة الثقافية بصفة خاصة يمكن أن يسهم في الحد من البطالة و تحفيز النشاط التجاري و تبادل و تطوير الحرف اليدوية.

إن الحداثة هي أساسا أفضل استفادة ممكنة من ذاكرة تاريخنا العريق، التي من شأنها أن تربط بين القديم و الجديد. و تمكن من التشخيص على أساس المعرفة العامة و العالمية و هذا ما حاولنا القيام به عبر هذه المداخلة. ومسألة إعادة تهيئة التراث لاحتواء هذه الحداثة هي قضية حيوية بقدر ما هي حساسة نوعا ما. و لتجسيد هذا يتطلب منا إيجاد الوسائل الناجعة لتصنيعها محليا و الانتماء إلى ثقافة العلاقة التي تلغي الانقسام بين التفكير الذي من شأنه أن ينتمي للاختراع و للإبداع فقط و الآخر الذي من شأنه سواء الحفاظ أو المحافظة لا غير. ولذلك فان الطريقة الصحيحة هي على الأرجح أن تكون المعاصرة و الحداثة من دون المساس بالتراث من أجل مواصلة التاريخ بمفردات جديدة و أسلوب مناسب لعصرنا هذا.

المراجع

1- Greffe Xavier (France 2000). Les Annales de la recherche urbaine 86 – Développement et coopération – Editions recherches.

2-مديرية التعمير و البناء لولاية تبسة

3- Pietri René Paul - Etude des problèmes de centre - ville « éléments de méthode » Editions Ministère de l'équipement France.

4- غرزولي لزهر ، أحريز عاطف (2010). التنمية الحضرية المستدامة لمدينة تبسة تمر عبر التجديد الحضرى لمركزها التاريخى. مؤتمر التقنية و الإستراتيجية في العمران المنعقد بجامعة الملك سعود بالرياض - المملكة العربية السعودية- من 03 إلى 06 يناير 2010.

5- Bazin Marcel and Mariegrange, Anne (2002). Les urbanistes et le patrimoine - Editions Presse universitaire Reims.

6- Geiser, J. M. (1957). Enquête urbaine sur la ville de Tébessa.

7- Gherzouli Lazhar (2007). Le renouvellement du centre ancien de la ville de Tébessa – Magistère en urbanisme « option ville & projet urbain » – université Mentouri Algérie.

8- Castel Pierre -Tébessa mystère de la région « ouvrage II »-

9- مديرية التخطيط و التهيئة العمرانية لولاية تبسة.

غرزولي لزهر

Tebessa: A city with a cultural heritage, between the necessity of protecting its environment and controlling its development (Article review)

Gherzouli Lazhar
Department of Architecture, University of Tebessa / Algeria
lazhar12@yahoo.fr

ABSTRACT

Like the rest of the Algerian cities, the City of Tebessa, the main subject of this intervention, and what it owns of natural qualifications, cultural achievements and cultural heritage bear witness to the succession of civilizations, in addition to its geographical location characterized by the combination between the high plateau and Sahara, it is a gateway to Algeria from the east side. Tebessa city owns a long history which roots deeply in the core of humanity ages and ancient civilizations, as alternated by many peoples and civilizations.

The rotation of many civilizations on Tebessa city maintains a variety of urban tissues and historical landmarks that cause difficulty with regard to preserving this urban heritage and how harnessing it to the modernization. This is what concerns us and the rest of professionals. It is not only a local or national matter but it has also worldwide importance which requires investigation for the homogeneity between the society and its economy, culture, and spaces where the people live, furthermore, it is the main base of genuine sustainable development of the city that depends on the absolute protection of heritage and the most sensitive archaeological sites, and the control of the space development of the city.

Through our participation entitled above, we pose the current problem of the historical town through Tebessa city. This is our effort to restore the building framework and follow-up the history of Tebessa city, in order to maintain the current urban heritage which enters among the concept of a constantly renewed heritage.

***Keyword*:** tissues - Heritage - sustainable development - civilizations –worldwide - Tebessa.